التفـــاؤل ... !

للأستاذ عمر الدسوقي

واحسرتاه على هؤلاء الذين حرموا سعادة التمتع بالوجود ، ورأوا الدنيا دار شقوة وعذاب ، وأن العـالم يغص بالشر يكمن لهم فى كل ثنية ، ويطالعهم فى وجه كل إنسان ، ويرددون مع ابن الرومى قوله :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وإلا فما يبكيه منها وإنها لأفسح مما كان فيه وأرغد

ويتندمون على أنهم تنسموا هواء هذه الحياة فما فيها إلا إفك وبهتان ، وخب وخداع ، وأمراض وآلام ، لا يحقق فيها رجاء ، أو تصفو فيها مسرة ، ويقولون مع أبى الطيب أولاً :

وما الدهر أهل أن تؤمل عنده
حيـاة وأن يشتاق فيه إلى النسل

ومع أبى العتاهية ثانياً :

ما زالت الدنيا لنا دار أذى ممزوجة الصفو بألوان القذى

إن أصابهم خير قالوا : ضحك القدر الساخر ، يمد فى أسباب النعمة الزائلة ، لتكون جراحاته أشد إيلاماً وأنـكى وقعاً ، وأمض للنفوس لا تؤمن غوائله ، ولا تـكف عواديه . وإن مسهم شر ظاهر برموا بالحياة وودوا لو عجلتهم المنية ؛ وطفقت ألسنتهم تقذف بالسباب للدهر ، والسخط على القدر والنـاس طراً ، وتنم عن قلوب مشحونة بالغيظ والحسد واليأس ، والناس عندهم أحلاس مكر ونفاق ، فليس الحديث إلا أحبولة طامع وشرك منـافق ، والاقتصاد فى زخرف القول خشونة ممقت واعتداد قوى

إذا ما الناس جربهم لبيب فإنى قد أكلتهم وذاقا
فلم أر فيهم إلا خـــداعاً ولم أر دينهم إلا نفـــاقا

هكذا يقول المتنبي فى بعض سخطاته على العالم لأنه لم ينله طلبته ويبلغه أمنيته ، بل تراه يحرص على الانتقام من البشرية :

ومن عرف الأيام معرفتى بها وبالناس روّى رمحه غير راحم
فليس بمرحوم إذا ظفروا به ولا فى الردى الجارى عليهم بآثم

والأرض وما فيها من زهر فواح ، وبحر رقراق ، ونسيم عليل ، وسماء صافية ، وشمس ضاحكة ، وطبيعة متبرجة ، لا تدخل على نفوسهم مسرة ، أو تقلل من نـكدهم وعبوسهم ، بل إنهم ينكرون هذا الجمال ، فالسماء شوهاء ، والأرض جرداء

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مُراً به الماء الزلالا

إذا بدا لهم أن يقدموا على عمل تملكتهم الرهبة ، وتوقعوا الخيبة ، وأوجسوا خيفة من كل شيء فيقدمون وقلوبهم مزعزعة وعقولهم مضطربة ، وقلما يصيب النجح من يخشى وتمثال الإخفاق والشر نصب عينيه

وما زلت عند رأيى من استجادة شعر هؤلاء الشباب ، وربما كنت أعرف بهم من حضرات زملائهم الناقين ، لأن كثيرين منهم يتفضلون علىّ فيرسلون إلى طُرَفاً رفيعة من أشعارهم تدل على ما سيكون لهم من أثر فى الأدب المصرى عامة والشعر المصرى الحديث على وجه التخصيص ... ولكن المضحك فى هذا الأمر غلو بعض من نقموا منى ذكر أسمائهم فى ثبَت الشعراء هؤلاء ! لقد أقبل أحدهم ثائراً كالعاصفة و (نكش) شعر رأسه (نكشةً) أفزعتنى ، ولست أقول إلا الحق ! ثم راح يتهمنى بأننى أنا ص نفسى حين أعلن استجادتى لشعر هؤلاء (الـ ...) — على درب عهدى بالدعوة إلى تجديد الشعر العربى ، وما أطلت فى الكتابة عن وجوه هذا التجديد

فانظر أيها القارئ كيف انصرف هؤلاء الشعراء الشباب الأفاضل عن أستاذنا الجليل (ا . ع) الذى شوى جلودهم فلم ينبس منهم أحد بحرف ، إلى هذا القلم الضعيف الذى شرع نفسه للدفاع عنهم فرفضوا هذا الدفاع أو جحدوه لأنه أخطأ فذكر أسماءهم بين أسماء متواضعة ، غير لامعة ...

والظريف أن الذين أنكر عليهم صديق (العاصفة) شاعريتهم كانوا شعراء من الطبقة الأولى عند صديق آخر سعى إلىّ ليعلن احتجاجه للسبب نفسه ... وقد حرت والله فى أمر هؤلاء الشعراء الشباب ، كما حرت من قبل فى أمر المسرحيين والموسيقيين والفنانين والكتاب والنقاد والقراء ... وأخشى أن أحار أخيراً فى أمر نفسى ...

يا رجال الفكر والفنون فى مصر ، بَعْضَ هذا الهدم ، ولا تكونوا : كالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله !

دريني خشبة

وما أدرى إذا يممت أمراً أريد الخير أيهما يليني
أألخـــير الذى أنا أبتغيه أم الشر الذى هو يبتغيني

ولذا تراهم يلجأون إلى الخرافات والتطير يتخذون منها نذراً لما عساه يصيبهم من مخبآت القدر الذى ضعف إيمانهم به وتقتهم فيه ، وهذا عنوان العقول التعبة والنفوس الخوارة الهيابة

أحقاً أن الحياة نقمة لا نعمة ، وأن نظام العالم مختل ، وقانون الطبيعة معتل ، وأن ليس فى هذا الوجود ما يحببنا فى الحياة ؟ إن العالم بنظامه الحاضر — بشموسه وأقماره ، وأرضه وبحاره ، وما فيه من انسجام ونظام ، أبدع عالم يمكن أن يوجد ما فى ذلك ريب . وحسبنا أنه هيئ ليعيش فيه الإنسان ويسخر كل ما يحيط به من بحار وشموس وجبال وحيوان ، وأنه الحى المفكر يلمسها ويستخدمها ويتغلب بما أودع فيه من ذلك النور الربانى على الطبيعة العاتية ، ويجتلى به أسرارها ليبرهن بحق على أنه خليفة الله فى الأرض ، وأنه أهل لأن يحمل الأمانة التى أشفق غيره من حملها

ألا يرى هؤلاء المتشائمون أن صغار الأحياء من حَمَل فى الحقل ، وطائر على الفنن ، وطفل فى الملعب ، تنهل كلها وتعل من نبع الوجود الصافى ، وتغدو طربة وتروح مرحة ، وأنها لا تشعر بأن الحياة شقوة بل تراها نعمة سابغة جديرة بأن يُستمتع بها ، ويُحرص عليها ؟

وإذا كان هناك من الكبار من لا يرى وجهها الفتان إلا نكداً مشوهاً ، فذلك لأنهم لم يحيوا الحياة الطبيعية ، أو أنهم حرموا فى طفولتهم الحب والعطف والحنان ، فتأصل فى نفوسهم سوء الظن بالعالم ، أو أنهم أخفقوا فى نيل مآربهم فخارت منهم العزائم وألقوا السلاح مفلولاً ، وضجروا بمن حولهم وضاقوا بالدنيا ذرعاً ، لما فى قلوبهم من أثرة مكينة رانت عليها ، فأفسدت هناءتها وطوحت بطمأنينتها وجعلتها لا ترى العالم إلا ظلاماً دامساً

ألا يحمد هؤلاء الله على أنهم لم يخلقوا حجارة على قارعة الطريق تحطم وتقذف وتداس ، أو حيواناً أعجم يتألم ولا يستطيع الشكوى ، كل أمله فى الحياة أن ينال ما يشبع بطنه ، محروماً نعمة التفكير . إننا نبصر ونسمع ، ونجرى ونتكلم ، ونفكر ونضحك ، ونمثل دورنا فى مأساة العالم التاريخية ، وهذه نعمة خليقة بالشكران إلى الله واهب النعم ، ولكن صدق الله حيث يقول : (وقليلٌ من عبادى الشكور) ، ورحم الله المتنبى حيث قال فى ساعة رضاه :

ولذيذ الحيـاة أنفس فى النفـ ـس وأشهى من أن يمل وأحلى
وإذا الشيخ قال أفٍّ فما ملَّ (م) حياة وإنما الضعف ملّا

ألا يعلم هؤلاء أن الحياة يجب أن تلبس على علاتها ، وأنها كفاح وجهاد ، وصراع وجلاد ، يفوز فيها من قويت مُنته وعظمت عدته ، ومن لا تطير نفسه شعاعاً ساعة الإخفاق ، بل يجمع الهمة ، ويشحذ العزيمة ليعاود الكرة ، حتى تسير الدنيا إلى غايتها ، فتثمر وتؤتى أكلها ، وتسير حثيثاً فى سبيل الكمال

دون الحلاوة فى الزمان مرارة لا تختطى إلا على أهـــواله

وأولى بهم أن يقولوا مع الأخطل :

وكان قوى الهموم إذا اعترتنى زَمَاعاً لا أريد به بدالا

إن المتفائل هو الذى يبسم للحياة فى سخطها ورضاها ، وهو الذى يرى فى الظلمة المطبقة عليه شعاعاً من الأمل ينير جنبات فؤاده ، ويغمره بالثقة والإيمان . وليس من التفاؤل ادعاء أن كل شيء يسير على خير مارجوه بينما المصائب متحفزة أو غاشية ، فتلك بلاهة لا تفاؤل ، ومثل من يفعل ذلك مثل النعامة تخفى رأسها حتى لا ترى الخطر المحدق بها ، ولكن المتفائل حين يرى الكارثة مقبلة يقدرها كالمتشائم تماماً ويحذرها حذره ، بيد أنه يختلف عنه بشجاعته ، وابتسامته ، وتفكيره السريع المنتظم لتفاديها أو التغلب عليها ، أما المتشائم فيجزع من هولها ، وينكص على عقبيه فراراً منها وهيهات

يقول روبرت برونتج Robert Browing :

« إن المتفائل من لا يولى ظهره للحياة بل يسير فى شرعتها قدُما

هو من لا يرتاب فى أن السماء ستمطر بعد جدب
ومن لا يحكم بانتصار الباطل وإن رأى الحق منهزما
ومن يعتقد أننا نكبو لنقال من عثرتنا ، وننام لنستيقظ »

إن الإنسان يخلق نفسه بنفسه ، فإذا اعتقد أن الحياة شقاء وتعس فهى كذلك ؛ والفقير يعزى نفسه بالجنة ، والغنى ربما اعتقد أن الله ساخط عليه فنغص ذلك عيشه . ويقول الدكتور جونسون : « إن نظرتك إلى الجانب المشرق من الحياة تساوى ألف جنيه فى العام »

إننا لا نجيد عمل شيء نرغم عليه ، بل نتقن ما تحفزنا إليه الرغبة والشوق والحب ، وما دمنا نعتقد أننا دفعنا إلى هذه الحياة

دفعاً لا حيلة لنا فيه ، وأنها فرضت علينا فرضاً ونحن لها كارهون ، وأننا نسير فيها على الرغم منا فلن نكون أبداً سعداء فى الحياة ، ولن يصيبنا منها إلا الخيبة والإخفاق والشر

إذا اعتقد الإنسان أن الحياة مغامرة تتطلب العزم الثابت ، والإرادة الصارمة ، والرأى الحصيف ، والثقة الحافزة — دع جانباً جمالَ الأرض الطبعى ، وما تفيض علينا به الأسرة والأصدقاء من سعادة — نجح الإنسان فى فن الحياة وجنى أحلى ثمارها .

أما النَّكس الرعديد الذى يفرق منها ، ويعتصم بالاستكانة والخنوع فلن ينال إلا فتاتها

أرى كلنا يبغى الحياة لنفسه حريصاً عليها مستهاماً بها صبّا
فحب الجبان النفس أورده التقى وحب الشجاع النفس أورده الحربا

إن واجبنا نحو أنفسنا ونحو غيرنا أن نكون متفائلين . إنك إذا طردت الوساوس والأوهام ، واقتحمت طريقك فى الحياة متدرعاً بالحب والشجاعة والإيمان سائراً وفق قانون الطبيعة السمح ، جليت لنفسك السعادة . وإذا أفضت من بشر نفسك وتفاؤلك على غيرك كنت ملاك الرحمة . يقول سدنى Sidney Smith : يشعر بعض الناس بالسعادة لأنه ذاقها مرة ، فإذا استطعت أن تجعل من حولك سعداء اليوم فسيشعرون بالسعادة عشرين عاماً ، إذ تغذيهم بها الذكرى الطيبة) . فعلى المتفائلين ألا يضنوا بالبشر والمرح الذى تفيض به نفوسهم على من يتصل بهم .

ويقول : إن فرح الإنسان لا يكمل إلا إذا شاركه فيه سواه

لقد أصبح التفاؤل نظرية فلسفية خلاصتها : « اعتقاد أن الحياة خير ، ومن الممكن جعلها أحسن مما كانت ، وأن طريق ذلك هو الإيمان والأمل والحب » . أما التشائم فيعتقد أن العالم يسير نحو الانحلال والشر ، وأن الحياة بقيرة الآمال والسعادة ؛ والتشائم الذى ينشر آراءه هذه بين الناس يساعد إبليس فى إضلاله .

إن هؤلاء الذين يخافون المستقبل ، ويتأسفون على الماضى يخلقون جواً فاسداً لغيرهم من الناس ، جواً خانقاً لهم قاتلاً لصحتهم مطوحاً بطمأنينتهم إلى الهاوية

ومن الممكن أن نصير متفائلين بالعادة والمران ؛ فالتفاؤل عادة السعادة والشكر . لماذا نكره الحياة وهى كما يقول ستيفنسن : « الحياة تنقص بكثير من الأشياء التى تجعل الناس كلهم سعداء » . لو فكر الإنسان أنه دون غيره فى هذا الوجود يجد متعته فى القراءة والموسيقى وفى الصور وفى الفنون ، وأن حديثه ليس عن الطعام والشراب فحسب ، ولكن حول الطبيعة والعلم والدين والفلسفة والتاريخ ، وأنه طلعة لمعرفة الماضى ، والكشف عن المستقبل ، وأنه مهتم بالحاضر ، وجب عليه أن يقول :

مهما كنتُ فعندى من أسباب السرور والفرح ما يوجب علىَّ الشكران لله . من أنا حتى أغمر بفضل الوجود ؟ وما الذى جعلنى أستحق هذه النعمة أن أنظر الشمس فى الربيع الطلق أو السماء فى الليلة الصافية ، أو البحر العريض ، أو الجبال تكسوها الغابات الخضر وتحلى قمتها الثلوج ، أو أتمتع بوجه أمى وطلعة أولادى ؟ لا شىء !

إن التشائم لا يعتمد على العقل فى حل مشاكله ، بل يعتمد على الغرائز البهيمية ، لأن العقل مشلول من الجزع والرعب وسوء الظن والنظرة الحالكة إلى العالم . إن اليأس يملك عليه لبه ، والخطيئة بقول : « ولا ترى طارداً للحر كاليأس » إن المتفائل لا يعتقد أن حياته تنتهى بالموت ، ولكن هناك حياة أخرى ، وما الموت إلا باب الخلود ، وإن النفس خلقت لتعرض يوماً على الله ، ولهذا لا يجزع المتفائلون من الموت بل هو حادث طبعى ، وإذا كان ثمت ألم فلفراق ما ألفناه ، ولكنه لا يوجب اليأس ، ورحم الله أبا الطيب حيث يقول :

إلف هذا الهواء أوقع فى النف س أن الحمام سُرَّ المذاق
والأسى قبل فرقة الروح عجز والأسى لا يكون بعد الفراق

ما أحوجنا فى هذه السنين المدلهمة ، وقد طفت الخطوب ، وفاضت الكوارث على العالم ، أن نستعصم بالإيمان والأمل والحب ، فنخفف عن أنفسنا ومن حولنا آلام المحنة العالمية ، حتى تنجلى الغمة ويشرق وجه الحياة فى ظل السلام والدَّعة !

عمر الدسوقى

رصاصة في القلب
حاليا
بسينما
ستوديو مصر